

الرؤية الأيديولوجية في ديوان "حديقة الآلهة" للشاعر إدمون غوجون

The Ideological Vision in the collection "Garden of the Gods" by Edmond Gojon

حورية موالفي *

جامعة الجزائر2، أبو القاسم سعد الله (الجزائر)

hourr16@hotmail.fr

تاريخ الاستلام: 2023/03/30 تاريخ القبول: 2024/05/31 تاريخ النشر: 2024/11/19

ملخص البحث:

Abstract:

This study introduces a French writer and poet born in Algeria and emerged during the French colonial era; however his literary fame was a short-lived one due to his association with a short historical period in the twentieth century. He published his various creations under the 'Algerianism' movement that supported the expansionist colonial policy in its keenness to maintain Algeria as a homeland for all greedy European settlers who sought wealth and stability. He is Edmond Gojon who became famous for his prolific poems, compared to his fellow settler poets, between the two world wars in colonial Algeria, and was forgotten after his death and the final departure of French colonialism.

Keywords: Colonial Poets, Ideology, Edmond Gojon, Algerianism Movement, French Colonialism, Algeria.

تتناول هذه الدراسة التعريف بكتاب لم تعمر شهرته الأدبية طويلا لارتباطه بفترة تاريخية قصيرة من عمر القرن العشرين، وشاعر من الشعراء الفرنسيين الذين ولدوا بالجزائر وظهروا في حقبة الاستعمار الفرنسي، ونشروا إبداعاتهم المختلفة في ظل حركة التجزؤر المساندة للسياسة الاستعمارية التوسعية في حرصها على الحفاظ على الجزائر وطنا يجمع كل المستوطنين الأوروبيين الذين وفدوا إليها طلبا للثراء والاستقرار، والتغني بجمالها وغنى ثرواتها التي تسيل لعاب الطامعين.

وهذا الشاعر الاستعماري هو إدمون غوجون الذي ذاع صيته بفضل إنتاجه الشعري الغزير، مقارنة بزملائه الشعراء المستوطنين، بين الحربين العالميتين في ظل الجزائر المستعمرة، ثم طوى ذكره النسيان بعد وفاته، ومغادرة الاستعمار الفرنسي البلاد بصفة نهائية.

الكلمات المفتاحية: شعراء الاستعمار، الإيديولوجيا، إدمون غوجون، حركة التجزؤر، الاستعمار الفرنسي، الجزائر.

اهتم الكتاب الاستعماريون أثناء الاحتلال الفرنسي بتصوير جهم الثابت للجزائر أرضا وتمسكهم الشديد بها بلدا، وراح أغلبهم في القرن العشرين يسجل هذه المشاعر الفياضة والميول السياسية باعتماد الرواية أداة لتمرير الإيديولوجيا الاستعمارية لمرونتها وقابليتها استيعاب القضايا المختلفة والأطروحات المتعددة الأبعاد، ومن جهة أخرى اختار بعضهم الشعر قالباً للتعبير عن مواقفهم وآرائهم من الأحوال والتغيرات التي كانت تحصل في محيطهم الداخلي مثلهم مثل الأدباء الروائيين، خاصة الذين ظهروا خلال الحرب العالمية الأولى إلى غاية نهاية الاستعمار على غرار إدمون غوجون.

فمن هو إدمون غوجون؟ وكيف ولماذا انضم إلى حركة التجزؤ؟ وماهي الأعمال التي ألفها لتواكب التغيرات التي عرفها الجيل الاستعماري الجديد في الثلث الأول من القرن العشرين، وماهي المجالات التي تطرق إليها في ظل الاحتلال الفرنسي للجزائر؟

لقد اختير المنهج التاريخي للتعرف على الملابسات والظروف التي جعلت إدمون غوجون كاتباً وشاعراً استعمارياً، والاستعانة بآليات المنهج الوصفي التحليلي لرصد تجسيد رؤية حركة التجزؤ في أدبه، ومن ثمة الكشف عن مضامين شعره، والإيديولوجيا الغالبة عليها عموماً.

1- الحياة الفكرية في الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي:

1-1- النشاط الثقافي في مطلع القرن العشرين:

غداة انتهاء الحرب العالمية الأولى نما الوعي الوطني لدى الشعب الجزائري الذي قدم النفس والنفيس من أجل فرنسا، وطالب بعض مثقفيه الذين تعلموا في المدارس الفرنسية الحكومة الاستعمارية بالحقوق المدنية والمساواة أمام الأوروبيين. حينئذ شعر فرنسيو الجزائر بخطر يهدد وجودهم في البلاد ويستهدف الامتيازات الكثيرة التي حصلوا عليها بسبب استثنائهم بالثروات واستعباد الجزائريين. وفي ظل هذه الظروف ظهر في فترة ما بين الحربين العالميتين تنظيم أدبي يعبر عن السياسة الفرنسية التوسعية في الجزائر هي حركة التجزؤ Algèrianisme في 1920 ضمت الكتاب والشعراء الذين يؤيدون فكرة الاستعمار من فرنسيي الجزائر. تأسست "حركة التجزؤ"، منهم إدمون غوجون Edmond Gojon،

وأول عمل اهتمت بنشره هذه الحركة للتعريف بإنتاج الشعراء الاستعماريين كتاب يتعلق بمنتخبات "عن ثلاثة عشر شاعراً جزائرياً"، سنة 1920، وقد جاء في مقدمتها: "المؤلفون الجزائريون الذين، بمبادرة من الشاعر لويس لوكوك، جمعوا باختيار أعمالهم في هذا الديوان، المطبوع بمدينة الجزائر، لم يكن لديهم أمنية كشف للمثقفين إبداع مدرسة أدبية. لا توجد أي صيغة للفن الجامد على الأقل تبدو أنها تجمعهم في عصابة"¹.

1-2- إدمون غوجون أديب استعماري:

لعل من بين الشعراء المتجزئين الذين ذاع صيتهم بين الحربين العالميتين في الجزائر وفرنسا إدمون غوجون، الذي ولد في فيليبفيل (سكيكدة حالياً) عام 1886 وتوفي في باريس عام 1935²، حيث اشتهر في الوسط الأدبي هناك، وأصدر بعض دواوينه في دور النشر بفرنسا³. درس إدمون في الجزائر وأكمل مشواره في فرنسا،

وأسس رفقة ليُو لُو مجلة "الانطلاق" L'Essor عام 1903 بالجزائر، وعلى أعمدها نشر أشعاره الأولى المنظومة في بداية حياته الأدبية، حيث ألف قصائد ذات مسحة برناسية ورمزية.

كان غزير الإنتاج ألف العديد من الدواوين، مثل *Le Retour*، *La Grenade 1912*، *Les cendres de*

Le visage penché 1910، *l'urne 1904-1907*، "حديقة الآلهة" *Le Jardin des dieux 1920*، *Le*

L'Empire de Cérès 1933، *Marchand de nuages 1930*.

بالإضافة إلى دراسات فكرية أخرى حول إنجازات فرنسا تدعم الأطروحة الاستعمارية بالجزائر منها *Cent*

ans d'effort français en Algérie; Boufarik 1930، *En Algérie avec la France 1927*، وحول تاريخ

الجزائر العثماني *La légende de Barberousse, roi d'Alger 1928*، ورواية واحدة *Le Petit 1913*

*Germinet*⁴ ونظرا لغزارة إنتاجه حصل على ثلاث جوائز على بعض أعماله منها جائزة *Archon-Despéruses*

على ديوان *La Grenade 1913*، وجائزة *Artigue 1932* على ديوان *Le marchand de nuages*، *Académie*

1930، على عمله *La légende de Barberousse, roi d'Alger*⁵.

2- ديوان "حديقة الآلهة" *Le Jardin des dieux*:

2-1- التعريف بالديوان:

من بين أشعاره التي نالت شهرة بعد الحرب العالمية الأولى ديوانه "حديقة الآلهة" *Le Jardin des dieux*

الصادر في 1920 عن دار النشر *Éditions Eugène Fasquelle*، والحاصل على جائزة فيميننا الأدبية في السنة

نفسها.

يخصص الشاعر غوجون جلّ قصائده للاحتفاء بأرض الجزائر، ووصف إعجابه بطبيعتها المتوسطية، وإبراز

تنوع تراثها وتقاليدها وثقافتها، مشيدا بتاريخها في عهد الرومان والاحتلال الفرنسي، مهاجما انتماء الجزائر إلى

الدين الإسلامي، وينتقد فترة وقوعها تحت الحكم التركي والتي يراها عهدا من العهود المظلمة في تاريخ الجزائر.

يجسد بمنظوره هذا مبادئ حركة "التجزؤ" التي ينتمي إليها أديبا وشاعرا فرنسيا، وواحدا من أوروبيي الجزائر

المستوطنين. فالجزائر تمثل بالنسبة إليهم الأرض الجديدة الموعودة التي غزاها أجداده الفرنسيون، والبلاد التي

تبناها أبائهم بعد الاحتلال، واستقر فيها المستوطنون الأوروبيون الذين وفدوا إليها من كل صوب وحذب، يستغلون

ثرواتها على أوسع نطاق حقبة من الزمن في تاريخ الجزائر، هي الحقبة الاستعمارية.

إن الأعمال التي ألفها المتجزئون تندرج ضمن الأدب الاستعماري الذي يلامس واقع المستعمرة وقضايا

المستوطنين. نظر له ببيير ميل وأكده ماريوس-آري لوبلون، حيث يرى ميل أن الأدب الاستعماري، هو عمل تم

إنتاجه في بلد استوطنه الأوروبيون في زمن معين، وكتبه أحد هؤلاء الأوروبيين الذين ولدوا، وعاشوا هناك سنوات

مكنتهم من استيعاب الإحساس بالمكان، والشعور بالانتماء إليه. وهو لا يعتبر مؤلفات كتاب المتروبول الذين

عادوا إلى فرنسا بعد إقامة قصيرة، ولم يستقروا بالجزائر أدبا استعماريًا. ووفقا لهذا المنظور طرحت أزمة الأدب

الغرائبي الذي ظهر في القرن التاسع عشر حيث انتقد لويس برتران الأدباء الفرنسيين الذين اعتنوا بتصوير اللون

المحلي، لأنه يقوم على الاستغراق في الأوهام والاقتصار على سحر التخيلات، لا على وصف الواقع الذي يميز

البلاد، بقوله: "لا يكفي الطواف في بلد أو حتى مجرد الإقامة فيه كي نتعرف عليه. ينبغي حقيقة أن عليك حقًا أن

تتجنس هناك، وأن تأخذ عادات وأفكار وحتى تحيزات وعواطف السكان الأصليين - حتى لو كان ذلك يعني

مهاجمتها بعد ذلك. الهمة المباشرة للأرواح، العداوات العرقية، تضارب المصالح، هذا هو الشرط الذي لا غنى عنه للحكم بشكل سليم"⁶.

2-2- دراسة وتحليل مضامين الديوان:

هذا الديوان الذي نشره بعد استواء عوده الشعري، يفتتحه بقصيدة تحمل عنوان المجموعة ذاته "حديقة الآلهة"، يتطرق فيها إلى موضوعات تدور حول وصف الجزائر بلده التي ولد فيها وترعرع في أحضان خيراتها، ورضع الإيديولوجيا الاستعمارية، وليس اختياره للعنوان الجامع من باب إطلاق الجزء على الكل، بل للتذكير بالبعد اللاتيني للجزائر، مركزا على سعة مساحاتها المترامية الأطراف، وتعدد مناظرها، وقوة عمرانها وجمالها، ويستذكر فيها الوجود الروماني من خلال الصور الفسيفسائية للآلهة التي تزدهي بها بعض المواقع التي شيدها الرومان منها موقع جميلة بولاية سطيف، فيقول في مستهلها:

أرضي، بحاجة حقاً إلى نشوة الآلهة الكنيبة،

من السُكر الشمسي المدهش،

لتجرؤ على مواجهة الصمت اللامحدود

لسعة مساحتك القاحلة،

إلى أن يقول في أواخرها معظما آلهة الرومان المصورة في أرضيتها:

أليست، أليست، أرض الصور الفسيفسائية،

بوجهها الكبير المُشع،

وجهها إلهي، وجهها بطولي،

حديقة الآلهة، حديقة الآلهة!⁷

وهناك قصائد أخرى في حب الوطن الجزائري منها، *Ma terre* "أرضي"، وكذا في شأن ربطه بذكر آلهة اليونان والرومان قبل اعتناقهم المسيحية *Dyonisiaque I, II*، و*l'après-midi*، حيث نجد أسماء أعلام وأساطير عن الآلهة ديونيسوس وفينوس وبان، وأناديومين، وهذا أثر من آثار المذهب البرناسي الذي اعتنقه في بداية نظمه الشعر.

حظيت مدينة الجزائر باعتبارها عاصمة البلاد، وكونها أهم المدن الجزائرية في عهد الاحتلال الفرنسي باهتمام الكتاب والشعراء على اختلاف مشاربهم ومذاهبهم، حيث تبوأ منزلة عظيمة في الشعر الذي كتبه فرنسيو الجزائر إعجابا بها، وإشادة بتاريخها، وتطورها في ظل الاحتلال الفرنسي. عناوين كثيرة تفصح حب إدمون غوجون للجزائر وتمسكه بها، ففي قصيدة منفردة، لم يجعلها تحت أي فصل مستقل، بعنوان "مدينة الجزائر" *Alger* يتناول وصف شعوره بالحب العميق نحو هذه المدينة الفاتنة التي ملكت فؤاده وملأت حواسه، مشيراً إلى الملامح التي جعلتها مدينة متميزة عن باقي المدن التي رآها بروائحها الطبيعية، وعبق تاريخها التركي الذي أزعج أوروبا مدة ثلاثة قرون، وهذه بعض أبياتها:

يا مدينتي ذات الواجهة الزرقاء،

لقد غمستك السماء اللازورد

في الفلفل الحار واليانسون ونبات رعي الحمام والبخور،

مدينة الجزائر، حديقة النار، ضريح القراصنة،

حمام من العنبر والنبات المعطر حيث أغرقت حواسي⁸.

في فصل موسوم بـ "سبحة الياسمين" *Le chapelet de jasmin* يضم ثلاثة وعشرين عنوانا تتطرق إلى وصف مدينة الجزائر، كل قصيدة تبرز ميزة من المميزات التي تشتهر بها هذه المدينة العريقة، اجتمعت فيها معالم حضارية، وتقاليد اجتماعية، وأذواق فنية، وأحداث تاريخية شتى.

مدينة مفضلة لدى الشاعر تجلي الصلة الوثيقة والحميمة التي عقدها معها، يهمس سائلا نفسه عن عظم منزلتها في قلبه، ومختبرا مدى وفائه لها مهما طاللت المدة التي قد يمكث فيها بعيدا عن أحيائها، في قصيدة أخرى موسومة "ذات مساء، من سمائك":

هل ذات مساء، يا مدينة الجزائر،

سوف أسأم من سمائك اللازورد

ومن كثير الألوان المعلقة على أيامك

ومن كل هذا الموكب اللامع والمتوثب

حيث تُجلّ دلافينك الفضية عودتي؟⁹

في قصيدة "الرمانة المشقوقة" *La Grenade fendue* يتطرق إلى سرد تاريخ الجزائر في عهد الدايات، ويصف حياتهم الرغيدة والباذخة، ومصير حكامها وباشواتها المأساوي الذي أوصلهم إليه غضب الإنكشارية عليهم، واصفا جمال قصورها المزخرفة وحدائقها الجذابة، ويكشف بعض أسرارها الدفينة، عن انغماس أصحابها الطغاة في الشهوات. وبعد زوال ملكهم الذي انقضى بالغزو الفرنسي للبلاد آل الحكم إلى الفرنسيين الذين اغتصبوا كنوز قصورها الفخمة:

أيّتها الرمانة التي تتعلّقين في حدائق الدّاي

وتسلمين لعينيّ كنزك الممنوح،

تفتحين لي سر ثرواك الغامضة:

العزلة الأرجوانية وغرفة الفسوق!¹⁰

ثم يصف المدينة مضيئة ومحاطة بأسوارها العالية المتينة، وهو يتجول في شوارعها المبنية على الطراز الأوروبي، ويشير إلى معالم الوجود الفرنسي بالجزائر، ساحة البحرية ورنين قرع الأجراس:

تُهديني على وهج الأضواء الساطعة

الجزائر في درع أسوارها، وأنا أسمع

من ساحة البحرية حيث يلمسني طائر النورس

الأجراس الخمسة تدق عند باب الحصن¹¹.

وفي سياق ذكره في قصيدة "مدينة الجزائر" عملية القرصنة التي اشتهرت بها المدينة في العهد العثماني، يستعيد تاريخ القراصنة بكتابة قصيدة سماها "القرصان" *Le corsaire*، يصف انفعاله وانطباعه إزاء أجواء مدينة القراصنة التاريخية:

مدينة الجزائر، كم أتذوق عند رؤيتك

بحماس، هذه الليلة، التي تلامس الشهوة
 اللون الصارم لسمائك الحارقة
 في بازاراتك التي قدت من الأرجوان والنحاس الملهب¹².
 وفي الأبيات التالية يبين شعور القرصان بالفخر والزهو معجبا بمظهره المرعب الذي يوحى بالعنف
 والخوف للذين سادا حكم الأتراك وأدى ذلك الأمر إلى فساد البلاد واستعباد العباد:
 وجعلت بجوار حزامي العريض
 سبحة العنبر الثقيلة ذات القبضات الذهبية
 أنا بالفعل قرصان عمليات الأسر المشهورة
 الذي، سيد البحار الصنديد، يفضل الموت¹³،
 يستذكر في قصائد أخرى تاريخ الجزائر العثمانية، ويوجه سهام القدح للأتراك الذين استباحوا سواحلها
 باسم الإسلام ونشروا في ربوعها الرعب، ويرسم صورة مستهجنة وعدائية لهم في قصيدة "صورة شخصية
 Portrait" يهاجم فيها أحد أحفادهم في الجزائر:
 لقد ضربت مدينة الجزائر على فم بواخر
 لتأتي وتجد على سطوحها المضيئات
 أسيراتك من الخوف تحت المساحيق شاحبات.

يا من ترفع نساءك الساجدات
 كشفت لهم في أعماق نظراتك الهادئات
 الغضب العاصف للبحر المتوسط¹⁴.
 من أهم المعالم الحضارية التي تفتخر بها مدينة الجزائر القصبة القديمة المشرفة على بحر المتوسطي،
 والشاهدة على تاريخ عريق للجزائر في عهد القراصنة، وفي قصيدة "القصبة" Casbah يصف الشاعر بناءها
 المتفرد الذي يوحى له بحالها المتناقضة بين الانغلاق والتشدد، والتمتدك والفسوق:
 القصبة مدينة الفريسة الظليلة والمغلقة،
 أين هم أسياذ الظل الأشداء؟
 أشاهد الليلة ملمحك المأساوي
 لسجينة عزلاء¹⁵.

ويتواصل ذكر القصبة في قصيدة أخرى عنوانها "المدينة العالية" Ville haute، فتتمظهر هندستها الفريدة
 بأزقتها الضيقة، وجدرانها السميكة ونوافذها المغلقة. وتبث الحياة في وصف حركات سكانه، من خلال الإشارة إلى
 يوميات واقعهم ببراءة أطفالها على عتبات البيوت، ودلال نسائها وحرصهن على نظافتهن وزينتهن بالحلي والحناء،
 وهن ذاهبات إلى الحمام مرتديات الحايك رمزا لعفتهن، فلا يعرفن، كما أوضح في قصيدة أخرى "الوجه المجهول"،
 يصف وجهها موشوما لا يعرف صاحبتة. وهذه أبيات من "المدينة العالية":
 امرأة تخرج من الحمام بخطوة خاملة

اتبعها من أجل متعة الإصغاء إليها، فضي،

السوار الذي يرن في كاحلها البطيئين.

وكي تراها نحوك عليك تجاوز خطاها

نصف مفتوح بحركة جميلة حيث تظهر ذراعها

حجابها الذي دفعته جانبا بيدين ملطختين بالدماء¹⁶.

بعد الصدام التاريخي والعقائدي بين الشرق والغرب خلال الحروب الصليبية، اخترع الغرب المسيحي الشرق المتخيل، وأضفى عليه الاستشراق كثيرا من الصور الخيالية العجائبية التي تشد القارئ غير العربي، والغرائبية التي تثير الأحاسيس الرقيقة والمبتذلة، وقصيدة "الشرق **Orient**" تجسد هذه الخصوصيات التي يراها هذا الشاعر المشبع بالترجسية الغربية تليق بهذا الشرق المجهول والمتفرد بثقافته المختلفة، والحريص على التشبث بدينه وتقاليده، وتميز عادات أهله المنحرفين، وتتمظهر في الألفاظ التي تشتهر بها البيئة الشرقية، الياسمين الدال على طيب الروائح، والتوابل كالفلفل، والقهوة العربية، والشبشب الذي يرمز إلى الراحة والرفاهية:

الشرق زهرة الياسمين في الفم،

إنه الفلفل الذي ينزف ورائحة القهوة

وراء السياج نداء مكتوم

وعلى الرخام المنعش صوت شبشب¹⁷.

اهتم الشاعر بالشرق وأحواله، فكتب قصيدة أخرى سماها أيضا "الشرق **Orient** مفعمة بالصور النمطية والأحكام الجاهزة. يصف انغماس أهل هذا الشرق في الشهوات الحسية والملذات اللانهائية كما قرأها في المصادر الاستشراقية التي وضعها الغربيون لوصف دونية الشرقي:

إذن، من هذه الحقائق حيث يحلم العشاق

يبدو عند هذا النداء المأساوي، فجأة،

من الليلة الرائعة التي يضطرم فيها الخليج

تترك في حافة الهاوية صرخة نشوة طويلة!¹⁸

"في قصر الداى **Au Palais du dey**، يصف الشاعر مرافقه وحالته الموحشة التي آل إليها بعد غياب أصحابه، وما يثيره في نفسه من ذكرياتهم:

يبدو القصر مبتهجا

والساعات، واحدة تلو أخرى،

تتابع حلمها الفضي

في الصمت وفي القمر.

بغض النظر عن روعتك، لا شيء

يؤثر فيّ ويهمني،

يا دوار أزرق هوائي،

ليلة، مداعبة حسيّة!¹⁹

يشير في قصيدة " المقبرة العربية" *Cimetière arabe* إلى الثقافة الدينية التي يتميز بها الجزائريون المسلمون، ويشرح فهمهم لصيرورة الأحداث ومصائر الكون والناس، والمتمثلة في الإيمان بالقضاء والقدر في كل ما يجري أمورهم، فيردد كلمة "مكتوب" الشهيرة على ألسنتهم وعلى طريقتهم في أحد مقاطعها وهو واقف يتأمل قبور المسلمين:

لا شيء بداخلي، أمامهم، ينزف ويرجف
لصوتي الهادئ صرخة واحدة فقط
على كل هذه العظام الممزوجة بالعشب البري:
- "لقد كان مكتوبا! لقد كان مكتوبا!"²⁰.

تشير قصيدة "لو الأسف أحيانا..." *Si parfois le regret* " إلى هجرة الأوروبيين إلى الجزائر واجتماع مختلف الأعراق والثقافات في فضاء واحد هو الفضاء الفرنسي، ويأمل أن يمتزج في هذا الفضاء المركب من إثنيات مختلفة كل شيء ويتعانق في بوتقة واحدة هي الثقافة اللاتينية:
أوه! ثم أدر عينيك نحو هذا اللازورد الموريسكي
حيث النخيل النوميدي والسرو الروماني
على حافة الخليج متحدون ويكاد يداعب بعضهم بعضا
يتشابكون برفق تحت ذات الياسمين.²¹

لقد عرفت الجزائر القديمة حضارات عديدة وأمم كثيرة استقرت فيها، ولعل أقدمها وجود الإمبراطورية الرومانية التي كانت تتوسع في البحر المتوسط على حساب منطقة شمال إفريقيا، وقد تحدث عن مختلف الأطلال، والمدن القديمة التي شيدها الرومان وخصص لها فصلا بعنوان "Le clair de lune dans les ruines"، فذكر شرشال، وتيمقاد (Thamugadi)، ولومبار في العناوين التالية: "Timgad" و "Lambèse" و "Dans la ville" و "L'après-midi":

رأيت في حزن سهولكم الهائل
حيث انتصر رعب روما نفسه،
مثل محيط تموج الحلفاء الأصفر
اجتاح أطلالك البعيدة!²²

من ناحية أخرى يحاول أن يعطي امتدادا وجوديا للرومان في تيمقاد، تموقادي بلسان البربر، لتبرير الاستعمار الفرنسي من خلال توظيف كلمة "دبابة" في هذه المقطوعة:

مرسلة رعدًاها المكتوم
دبابة تصدر صوتها البطولي
وهي تعبر تاموقادي.²³

ويكرر الطرح ذاته في مقطع آخر من قصيدة "في الظهيرة":
أتخيل في عز الظهيرة،

دبابة تهز الصمت...

كم هو رائع الأزرق على تاموفادي!²⁴

كانت قسنطينة عاصمة الشرق أكبر الأقاليم، تتمتع بطبيعتها الخلابة والعجيبة، إذ بنيت على الصخور الصلبة وفوق مياه وادي الرمال تربط بين أطرافها جسوراً معلقة متينة البناء، وتشتهر بتاريخها النوميدي القديم وعاصمتها تسمى "سيرتا"، ولقد تطرق إلى وصفها وذكر تاريخها النوميدي في عنوانين "سيرتا" و"صوفونيسب" Sophonisbe الأميرة القرطاجية زوجة الملك سيفاكس. وظف الشاعر في هذا المقطع من العنوان الأول اسمها القديم "سيرتا" ليبين عدم استساغته له، ويشير إلى سوء أحوالها الاقتصادية والاجتماعية في العهد الفرنسي، فقد انتشرت فيها الأوبئة والأمراض:

على مرتفعك المائل أود، محترقا،

متعرقا، هاجمني الذباب والحى،

أشاهد بجعل اسمها العسير يرن على شفقي

تتبدى سيرتا على صخرتها الدامية!²⁵

سعى الاستعمار الفرنسي بكل ما أوتي من قوة وحيلة إلى طمس هوية الشعب الجزائري منذ أن استلم زمام الحكم بعد الغزو العسكري، وكى يتحقق له ذلك استهدف في البداية القضاء على الدين الإسلامي وتعويضه بالمسيحية، وتطرح قصيدة "المسيح عيسى في المسجد" Jésus à la mosquée قضية التبشير التي باشرتها فرنسا الاستعمارية في زمن مبكر من الاحتلال لتنصير المسلمين الجزائريين، بتحويل المساجد إلى كنائس وكاتدرائيات:

يا عيسى الوديع منذ ذلك الحين في عمق مساجدهم

ترفع جبينَ أمير مسلم،

لا أدري أيّ مهدئ رقيق ورائع

يفر من قدميك المفتوحتين ويديك المميزتين.²⁶

يتباهى الشاعر بخيرات الجزائر وتنوعها، أرضه الطيبة المعطاء، ويعدد مختلف أشجارها وأزهارها في قصائد مثل، Laurier de mon pays، والفواكه الكثيرة والمتنوعة التي تزخر بها من تين، ورمّان وموز وبطيخ أحمر (دلاع) وتمور وبرتقال وعنب، مبينا حلاوة طعمها وطراوتها وطيب نضجها، فيباركها في عناوين مختلفة منها "بستان الرمان" Le jardin des grenades، La momie، Le Sortilège I, II, III، وفي قصيدة Fruits "الفاكهة" يقول:

يا فاكهة أرضي الجميلة يا معسولة يا حريرية

بهجة لساني وسحر عيني،

تين، كيس عسل، أرجواني كريمي وناعم،

في منتصف النهار حيث تلتصق النحلة،

وعندما أخلط عسلها بأصابعي المفتونة،

تعطيني ثمرة نضجها.²⁷

وفي موضع آخر من الديوان نظم أبياتا أخرى في وصف الفاكهة المشهورة بسهول الجزائر الممتدة في الشمال وهما البرتقال والرمان:

أيها البرتقال المنير، أيها الرمان المضاء،
ثمار بلدي الجميلة
تترك في الحين ذاته الفم عبقا
والعيون مبهورة²⁸.

من مبادئ المتجزئين الأدبية وصف التراث الجزائري الذي اعتبروه تراثهم بالتبعية، والناي العربي من الآلات الموسيقية التي تستخدم في الغناء الشعبي الجزائري، حيث تطرب أذن جمهور السامعين ويستأنس الناس بلحنها العذب ونغمها الرقيق، وقد ورد وصف هذه الآلة في عناوين هي، "Une flûte en mer"، و"Flûte arabe" التي نذكر منها الأبيات التالية:

فينوس، صافية وسافرة، على حافة الوادي،
تنساب مثل دمعة على وجه المساء.
ها هي الساعة الإلهية حين تأتي لتحركني،
يا آلي العربية الرقيقة، يا نايا بلا عزاء!²⁹

ويختتم النص بأبيات فيها نبذة استصغار للثقافة الإسلامية التي اضمحلت، في رأيه، في الجزائر وتركت مكانها للثقافة المسيحية، فيقول ناصرا لدينه وثقافته الغربية، وهو يخاطب الناي الذي بدا صوته حزينا يئن لفقدان الوطن، ويحن إلى الأيام الجميلة الضائعة بسبب ممارسات الاستعمار:

بينما صوتك الأجش مرتفعا
يئن، يتوسل، يشهد ويجعله متأثرا
هذا الشفق حيث يرن جرس مسيحي³⁰.

لما كان الشاعر إدمون غوجون من مواليد جهة الشرق الجزائري كما ذكر سالفا، ثم استقر وعمل في مدينة الجزائر عاصمة البلاد، فقد كانت له معرفة جيدة بالفضاء الجغرافي الجزائري عامة، وإن كانت مدينة الجزائر بأحيائها وساحاتها قد أخذت حصّة الأسد في قصائده، إلا أنه ورد كثير من أسماء الأماكن لجهات مختلفة شرقا وغربا وشمالا وجنوبا في أبياتها. ومن المناطق التي ذكرها جرجرة في قصيدة "ذات مساء في سمائك اللازورد"، و"فللة" Filfila جبل بمسقط رأسه بسكيكدة:

فللة! فللة! جبل مسقط رأسي
ظريف جدًا في السماء التي أغرقتني باللون اللازورد،
مثل الأفق دائم الصفاء
ينتشر جمالك البعيد!³¹

بالإضافة إلى ما ذكر من تيمات تناولت شؤون الجزائر الداخلية احتواها الديوان، حاول الشاعر أن يتحدث عن مواضيع أخرى، مثل الحيوانات المتوحشة التي كانت تعيش في براري الجزائر مثل الضباع، والدب،

حسب قوله، في جبال زكار، وشغفه اللافت للنظر بالبحر الذي يرمز إلى مختلف حالات الشاعر النفسية والشعورية من هدوء واضطراب، وسكون وهيجان. ولاسيما خاصية تكرار وصفه في قصائد مختلفة.

2-3- التعايش بين الأجناس والبعد الخارجي:

نشأ الشاعر غوجون في الجزائر حيث تعدد الأجناس والثقافات وتباين الطوائف المتناحرة والمتنافرة، وفي إطار معاداة السامية التي أحدثت ضجة وجدلا واسعين إبان الاستعمار، عبر عن بغضه الشديد للطائفة اليهودية في فصل تحت عنوان "Poèmes pour Jézabel"، ضم خمس قصائد في ذم اليهود واحتقار ملتهم والسخرية من تاريخهم، هي: اليهود Juifs، سارة Sarah، L'ancêtre السلف، Vieille Juive عجوز يهودية، Au balcon في الشرفة، ويشير إلى صفات نسائهم الخبيثة عبر ذكر بعض أسمائهن العبرية سارة وإيزابيل. والمتأمل في هذه القصائد يفهم أن الشاعر يعلن عداؤه لليهود صراحة بسبب صفاتهم الدنيئة:

إذن، دوماً يكون ذلك الخصام المظلم...

يهود ملعونون أبديا، كم أشفق عليكم!

لا شك، بعيداً عنا، يحاصركم كبرياؤكم،

لكني الذي عرفتكم سريين وبلا همس،

أيمكنني أن أنسى الرعب الذي امتلأت به عيونكم؟³²

وللبعد الخارجي حضور لافت في الديوان من خلال التطرق إلى أثر البعدين المتوسطي والإفريقي للجزائر وسكانها. فالشاعر يحيل إلى انتماء الجزائر الجغرافي إلى البحر المتوسط وإلى قارة إفريقيا في الآن نفسه، ولاشك أنها نهلت من الثقافات التي كانت تحيط بها وتؤثر فيها عابرة حدودها، وتتمظهر هذه النزعة المتوسطية في قصيدة "البحر المتوسط" Méditerranée، والشمس الحمراء Le soleil rouge entr'ouvre، أما الانتماء الإفريقي فيبدو في قصيدتي "بين أوروبا وإفريقيا" Entre l'Europe et l'Afrique، و"إفريقيا" Africa التي يستدعي فيها كل العناصر المنصهرة فيها والرموز التاريخية للحضارات القديمة التي احتضنتها أرض الجزائر في هيبون وتيبازة، كقيصر الرومان وأمير الإسلام، والملكة سيليني والملك يوبا، والقديس أغسطين وأمه مونيكا، والبحارة القراصنة، فيخاطبها قائلاً:

أرضي التي تحت أشجارك

بأوراق كثيفة داكنة،

مخفية رخامات إلهية

وحطاما بطولية³³،

أما النزعة المتوسطية التي سبق أن لمح إليها لويس برتران، الأب الروحي للحركة، في رواياته مثل "دم الأعراق" فتتبدى في كون الجزائر جزءا جغرافيا حقيقيا، وضفة من ضفافه الجنوبية، وهي بذلك قد تفاعلت، حتما، عبر التاريخ بهذا الانتماء مع أعراق متوسطية أخرى كاليونان والرومان واللاتين والفينيقيين، والبحر المتوسط ولا شك أنه بحر لكل المتوسطيين، وها هو الشاعر يتأمله صباحا على سطوح البيوت بمدينة الجزائر يلمس بأمواج مياهه رؤوسه الساحلية:

أيها البحر المتوسط حيث يصرخ اللازوردي

بالبوق الفضي للصباح المشع،
لما تكون أطرافك الثلاثية الجميلة على مياهاك الهادئة
هي هدايا ثمينة فرقها الآلهة،

كم أحب أن أراك مرة أخرى من هذه السطوح العالية،
من بين الحلم المسلح للصبار المحارب
في الساعة التي ينتفخ فيها مثل الدرع،
المدار الأزرق ينحني فوق أوراق الغار³⁴.

كانت الحضارة الفارسية تنافس حضارة الرومان في القوة والعظمة، وحول هذا الموضوع أفرد الشاعر فصلاً يتناول فيه الفرس وثقافتهم تحت عنوان "لشاه الفرس" *Pour le Shah de Perse*، ويحتوي هذا القسم على قصائد عن الشاعر الفارسي المتيم "الشاعر" *Le poète*، وعن العشق "زينة" *Zina*، الأحجار الكريمة "*Pierrerie*"، "السجاد" *Tapisserie*، الشرق *Orient I, II*. وهذه القصائد لم تخرج عن نطاق الإطار الاستشراقي في الوصف النمطي لمميزات ثقافة الشرق وتقاليد أهله الشرقيين، في قصيدة "الشرق" *I*:

لفل، وزعفران، وبرتقال، ونبات رعي الحمام
أهدوا لي كل عطورهم كذا المجوهرات
ومزج الأطفال إلى ظل النوافير
طراوة ضحكاتهم إلى طراوة الماء³⁵.

وعلى المنوال النمطي ذاته في قصيدة "تحت عين النوافذ الضيقة" *Sous l'œil des hublots* يدعو، على طريقة رومانسي القرن التاسع عشر، إلى الهروب من ملل أوروبا إلى أصقاع بعيدة، إلى بلدان الشرق كالبنغال وأفغانستان لاكتشاف المجهول:

لهرب من أوروبا العجوز حيث كل شيء يثير الاشمئزاز
ومن يتشاءب على القمر للإيقاعات العجرية...
هناك، البنغال والورود الأفغانية،
هناك، يؤكل الساغو
والعش الأزرق لطائر السنونو³⁶.

وفي سياق رومانسي يتجلى في السأم من أوروبا وحضارتها المادية نظم قصائد أخرى تتناول اختراق الغربيين فضاء الآخر مثل، "الآفاق" *Horizons*، و"الحنين" *Nostalgie*، و"الغزاة" *Les conquérants*.

يلاحظ على أشعار هذا الديوان أن صاحبه ظل وفيًا من الناحية الجمالية لمبادئ المدرسة البرناسية التي تبناها في تجربته الشعرية الأولى، من خلال الميل إلى الرموز الأسطورية والتركيز على استدعاء ماضي الحضارات، والأهم الغابرة ووصف أطلالها. غير أنه لم يتعرض إلى تصوير الوضع الاستعماري البائس الذي كانت تعاني منه الجزائر، ولم يصور مأساة الجزائريين مع الاستعمار، بل اكتفى بوصف خوالج نفسه وبث أحاسيسه تجاه المناظر والمدن على وجه الخصوص.

خاتمة؛

في الختام، يمكن القول إن هذا الأديب الاستعماري رغم غزارة إنتاجه الشعري في فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر، لكنه توفي صغيرا نسبيا قبل بلوغ الخمسين من عمره، ولم يكتب له ذيع الصيت خارج الجزائر المستعمرة التي ولد فيها، عدا فرنسا (المتروبول) بلاد أجداده الأصلية التي عرف فيها الشهرة مع فرنسي فرنسا في فترة من الفترات، على غرار ألبير كامو الذي طبقت شهرته آفاق بنيل جائزة نوبل أو على الأقل في الجزائر مثل روبير راندو أو إيمانويل روبلس وجول روا.

وعلى هذا الأساس فإن الأمر الذي ركزت عليه هذه الدراسة هو التعريف بالشاعر ودراسة وتحليل القصائد التي جمعها في ديوانه السالف ذكره، ورصد الأنساق الثقافية المضمرة والمتمظهرة في نصوصه، وبيان تنوع موضوعاته التي تميزت بالتطرق إلى كثير من الجوانب التاريخية والاجتماعية على المستويين الداخلي والخارجي، ظهرت من خلال النماذج التي اخترناها وسقناها كأمثلة توضح مذهب الشاعر وتوجهه الإيديولوجي الذي خدم السياسة الاستعمارية في الجزائر.

وجدير بالذكر أن المراجع نادرة فيما يخص الدراسات التي اهتمت بهذا الشاعر المنتهي إلى حركة التجزؤ، فقد كان الأمر راجعا إلى العناية بالنصوص السردية أكثر، لاتخاذها وسيلة للدعاية الاستعمارية وإقبال جمهور القراء عليها بالدرجة الأولى، واتجاه الكتاب بحكم هذا العامل المحفز إلى تأليف الروايات والقصص بالدرجة الثانية تنافسا لنيل الجوائز والألقاب. ويضاف إلى هذا كله أن أعماله يصعب العثور عليها في المكتبات، لأجل ذلك كان التركيز على الديوان غالبا، ومن ثمة كان اعتماد طريقة تحليل موضوعاته ومضامينه على النص ذاته.

الهوامش والإحالات:

¹ - Lanasri, Ahmed, (1995), La littérature algérienne de l'entre-deux-guerres - Genèse et fonctionnement, Edition Publisud, Paris, p.57.

² - Clément Ramond, (1935), La mort d'Edmond Gojon, L'Impartial: organe républicain des intérêts de Djidjelli et de la region.

³ - L'Afrique du Nord illustrée, (1935) journal hebdomadaire d'actualités nord-africaines : Algérie, Tunisie, Maroc, Date d'édition, p.11.

⁴ - Edmond Gojon (1886-1935) - Œuvres textuelles de cet auteur <https://data.bnf.fr/fr/documents-by-rdt/10900585/te/page1>. Consulté le 15-12-2022

⁵ - <https://www.academie-francaise.fr/edmond-gojon>. Consulté le 15-12-2022

⁶ - Bertrand Louis, (1910) Le mirage oriental, Perrin et cie, Paris.p.34.

⁷ - Gojon Edmond, (1920). Le Jardin des dieux, Eugène Fasquelle, Exporté de Wikisource le 15 décembre 2022, p.8.

⁸ - Gojon Edmond, Le Jardin des dieux, ibid, p.12.

⁹ - Ibid, p.27.

¹⁰ - Ibid, p.31.

- ¹¹-Ibid.
- ¹²-Ibid, p.24.
- ¹³- Ibid, p.25.
- ¹⁴- Ibid, p.20.
- ¹⁵- Ibid, p.17.
- ¹⁶- Ibid, p.28.
- ¹⁷- Ibid, p.19.
- ¹⁸- Ibid, p.43.
- ¹⁹- Ibid, p.39,40.
- ²⁰- Ibid, p.23.
- ²¹- Ibid, p.29.
- ²²- Ibid, p.52.
- ²³- Ibid, p.29.
- ²⁴- Ibid, p.150.
- ²⁵- Ibid, p.55.
- ²⁶- Ibid, p.34.
- ²⁷- Ibid, p. 44,45.
- ²⁸- Ibid, p.47.
- ²⁹- Ibid, p.50.
- ³⁰- Ibid.
- ³¹- Ibid.
- ³²- Ibid, p.71.
- ³³- Ibid, p.122.
- ³⁴- Ibid, p.111.
- ³⁵- Ibid, p.166.
- ³⁶- Ibid, p.173.

قائمة المصادر والمراجع

- Bertrand Louis (1910), Le mirage oriental, Perrin et cie, Paris.
- Gojon Edmond (1920). Le Jardin des dieux, Eugène Fasquelle, Exporté de Wikisource le 15 décembre 2022
- Lanasri Ahmed (1995), La littérature algérienne de l'entre-deux-guerres - Genèse et fonctionnement, Edition Publisud, Paris.
- L'Afrique du Nord illustrée : journal hebdomadaire d'actualités nord-africaines : Algérie, Tunisie, Maroc, Date d'édition: 1935-04-13,p.11.
- Ramond,Clément. La mort d'Edmond Gojon, L'Impartial : organe républicain des intérêts de Djidjelli et de la region, Date d'édition : 1935 -04-1
<https://gallica.bnf.fr/ark:/12148/bpt6k7132947m>
- Edmond Gojon (1886-1935) - Œuvres textuelles de cet auteur
<https://data.bnf.fr/fr/documents-by-rdt/10900585/te/page1>
Consulté le 15-12-2022
- <https://www.academie-francaise.fr/edmond-gojon>. Consulté le 15-12-2022